

## غزوة المريسيح أو (بني المُصْطَلِق)

لما بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له - يجتمعون - ويقودهم الحارث بن أبي ضرار، استعمل على المدينة «أبا ذر الغفاري» ويقال: «نُمَيْلَةُ بن عبد الله الليثي» ثم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم، يقال له: (المُرَيْسِيحُ)، من ناحية «قُدَيْد» إلى الساحل، فتزاحف الناس، واقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم الله بني المصطلق، وقُتِلَ من قُتِلَ منهم، ونَقَلَ رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فأفاءهم عليه. وقد أصيب - يومئذٍ - رجل من المسلمين يقال له: «هشام بن صبابه» من بني كلب بن عوف بن عامر بن ليث بن بكر، أصابه رجل أنصاري من رهط «عبادة بن الصامت» وهو يظن أنه من العدو، فقتله خطأ.

وفيما كان رسول الله ﷺ على ذلك الماء، أقبل الناس وكان مع «عمر بن الخطاب» غلام له من «غفار» يدعى «جهجاه بن مسمود» يقود فرسه، فازدحم «جهجاه» و«سنان بن وَبَر» الجهني، حليف بني عَوْف بن الخزرج، على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار! وصرخ «جهجاه»: يا معشر المهاجرين! فغضب «عبد الله بن أبي ابن سلول» وعنده رهط من قومه، فيهم «زيد بن أرقم» غلام حديث السن، فقال: أو قد فعلوها! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله! ما عدونا وجلايب قريش إلا كما قال القائل: «سَمَّنْ كلبك يأكلك!»، أما والله! لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله! لو أمكنكم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير بلادكم.

وحين سمع «زيد بن أرقم» مقالة «ابن أبي» مشى إلى رسول الله ﷺ عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره بها، فقال «عمر بن الخطاب» مُرّ به «عباد بن بشر» فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: (فكيف، يا عمر! إذا تحدث الناس أن «محمداً» يقتل أصحابه؟، لا، ولكن أذن بالرحيل)، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

ولما أخبر «عبد الله بن أبي ابن سلول» أن «زيد بن أرقم» بلغ رسول الله ﷺ بمقالته، أتى النبي ﷺ فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به، - وكان في قومه شريفاً عظيماً - فقال من حضر رسول الله ﷺ من أصحابه من الأنصار: يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، حذباً على «عبد الله بن أبي» ودفعاً عنه.

وأثناء مسير رسول الله ﷺ، لقيه «أسيد بن حُضَيْرٍ» فحيّاه بتحية النبوة، وسلّم عليه، ثم قال: يا نبي الله! والله! لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: (أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟) قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: (عبد الله بن أبي)، قال: وما قال؟ قال: (زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل)، قالت يا رسول الله! والله! تخرجه منها إن شئت، هو والله! اللذليل، وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله! ارفق به، فوالله! لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظّمون له الحَرَزَ ليتوجّوه، فإنه يرى أنك قد استلبته ملكاً.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، حتى إذا وجدوا مَسَّ الأرض وقعوا نياماً، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس، عما كان من حديث «عبد الله بن أبي» بالأمس.

ثم سلك رسول الله ﷺ بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فَوَيْقُ النَّقِيعِ، يقال له: (بقعاء)، ولم تلبث أن هبت على الناس ريح شديدة آذتهم، وتخوفوها فقال لهم رسول الله ﷺ: (لا تخافوها، فإنما هبّت لموت عظيم

من عظماء الكفار)، فلما بلغوا المدينة، وجدوا أن «رِفاعَةَ بن زيد بن التابوت»، من بني قينقاع، وكان عظيماً من عظماء يهود، وكهفياً للمنافقين، مات في ذلك اليوم. وأنزل الله تعالى في «عبد الله بن أبي» ومن كان على شاكلته من النفاق سورة المنافقين، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن «زيد بن أرقم» ثم قال: (هذا الذي أوفى الله بأذنه).

وقد روى أبو إسحاق، عن زيد بن أرقم، قال: خرجت مع عمي في غزاة، فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول لأصحابه: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاللَّهِ!﴾ ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٧ - ٨]، فذكرت ذلك لعمي، فذكره عمي لرسول الله ﷺ، فأرسل إليّ، فحدثته، فأرسل إلى «عبد الله» وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، قال: فكذبني رسول الله ﷺ وصدّقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك! قال: حتى أنزل الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال: فبعث إليّ رسول الله ﷺ فقرأها، ثم قال: (إن الله صدّقك يا زيدا!).

ولما بلغ «عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول» ما كان من أمر أبيه سيءً بذلك لأنه كان من المؤمنين الصادقين، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنه قد بلغني أنك تريد قتل «عبد الله بن أبي» - فيما بلغك عنه - فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله! لقد علمت الخزرج، ما كان بها رجل أبرّ بوالده مني، وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل «عبد الله بن أبي» يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر. فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: (بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا)، وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنفونه، ويتوعدونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك عنهم من شأنهم: (كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتله يوم أمرتني بقتله لأزعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته)، فقال عمر: قد والله! علمتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظمُ بركة من أمري.

وخرج من مكة «مِقَيْسُ بنِ صُبَّابَةَ» إلى المدينة مسلماً في ظاهر أمره، فلما أدخل على رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله! جئتك مسلماً وأسألك دِيَةَ أَخِي الذي قتل خطأ، فأمر رسول الله ﷺ بإعطائه دِيَةَ أَخِيهِ - هشام بن صُبَّابَةَ - فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتدّاً وراح يقول:

شَفَى النَّفْسُ أَنْ قَدِ بَاتَ بِالْقَاعِ مُسْنَدًا  
وَكَانَتْ هَمُومُ النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ قَتْلِهِ  
حَلَلْتُ بِهِ وَتَرِي وَأَدْرَكْتُ نُؤْرَتِي  
ثَارَتْ بِهِ فَهَرَأَ وَحَمَلْتُ عَقْلَهُ<sup>(٢)</sup>  
وَقَالَ مِقَيْسُ بنِ صُبَّابَةَ أَيْضًا:

تَضَرَّجُ ثَوْبِيهِ دِمَاءَ الْأَخَادِعِ<sup>(١)</sup>  
تَلِمَ فَتَحْمِينِي وَطَاءَ الْمَضَاجِعِ  
وَكُنْتُ إِلَى الْأَوْثَانِ أَوْلَ رَاجِعِ  
سَرَاةٍ<sup>(٣)</sup> بَنِي النَّجَارِ أَرْبَابِ فَارِعِ<sup>(٤)</sup>

جَلَلْتَهُ<sup>(٥)</sup> ضَرْبَةَ بَاءٍ<sup>(٦)</sup> لَهُ وَشَلَّ<sup>(٧)</sup>  
فَقَلْتُ وَالْمَوْتُ تَغْشَاهُ أَسِيرَتُهُ<sup>(٨)</sup>  
وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَكَانَ شِعَارَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَنِي الْمِصْطَلِقِ: يَا مَنْصُورُ!  
أَمِثْ أَمِثْ. وَتَكَبَّدَ بَنُو الْمِصْطَلِقِ يَوْمَئِذٍ الْعَدِيدَ مِنَ الْقَتْلِ، وَقَتَلَ «عَلِيٌّ بنِ  
أَبِي طَالِبٍ» مِنْهُمْ رَجُلَيْنِ، مَالِكاً وَابْنَهُ، وَقَتَلَ «عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ» فَارِساً  
مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: «أَحْمَرٌ» أَوْ «أَحْيَمَرٌ».

وحدث محمد بن إسحاق<sup>(٩)</sup>، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة، [عن عائشة زوج النبي ﷺ]، قالت: لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبَايَا بَنِي

(١) الْأَخَادِعُ: عُرُوقُ الْقَفَا، وَهِيَ أَخْدَعَانُ.

(٢) الْعَقْلُ: الدِّيَةُ.

(٣) السَّرَاةُ: خِيَارُ الْقَوْمِ.

(٤) فَارِعٌ: حِصْنٌ لَهُمْ.

(٥) جَلَلْتَهُ: عَلَوْتَهُ.

(٦) بَاءٌ: أَخَذْتُ بِالثَّأْرِ.

(٧) الْوَشَلُّ: الْقَطْرُ.

(٨) الْأَسِيرَةُ: التَّكْسِرُ فِي جِلْدِ الْوَجْهِ وَالْجَبِيْهَةِ.

(٩) تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ: (٢/٦١٠).

المصطلق وقعت «جويرية بنت الحارث» في السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حُلْوَةً مُلَاحَةً<sup>(١)</sup>، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأنت رسول الله ﷺ تستعينه على كتابتها، قالت: فوالله! ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي كرهتها، وعرفت أنه سيرى منها مثل ما رأيت، فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله! أنا «جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار» سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فوَقَعْتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته على نفسي، فجتك أستعينك على كتابتي، فقال لها: (فهل لك في خير من ذلك؟) قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: (أقضي كتابتك وأتزوجك)، قالت: نعم، يا رسول الله! قال: (قد فعلت)، قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج «جويرية بنت الحارث»، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بأيديهم.

قالت: فلقد أَعْتَقَ بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها؟<sup>(٢)</sup>.

قال ابن هشام<sup>(٣)</sup>: ويقال: لما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق، ومعه «جويرية بنت الحارث» وكان بذات الجيش، دفع «جويرية» إلى رجل من الأنصار ودبعة، وأمره بالاحتفاظ بها، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأقبل أبوها «الحارث بن أبي ضرار» بفداء ابنته، فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء، فرغب في بيعين منها، فغيبهما في شُغْبٍ

(١) المُلَاحَةُ: الشديدة الملاحه والحسن.

(٢) قال السهيلي: (وأما نظره ﷺ لجويرية حتى عرف من حسنها ما عرف، فإنما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة، ولو كانت حرة ما ملأ عينه منها، لأنه لا يُكْرَهُ النظر إلى الإماء، وجائز أن يكون نظر إليها لأنه أراد نكاحها، كما نظر إلى المرأة التي قالت: إنني قد وهبت نفسي لك يا رسول الله! فصعد فيها النظر ثم صَوَّبَ، ثم أنكحها من غيره، وقد ثبت عنه ﷺ الرخصة في النظر إلى المرأة عند إرادة نكاحها).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/٣٢٣).

من شعاب العقيق، ثم أتى إلى النبي ﷺ، وقال: يا «محمد»! أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها، فقال رسول الله ﷺ: (فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق، في شعب كذا وكذا؟) فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت محمد رسول الله، فوالله! ما اطلع على ذلك إلا الله! فأسلم «الحارث»، وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما، فدفع الإبل إلى النبي ﷺ، ودفعت إليه ابنته «جويرية» فأسلمت، وحسن إسلامها، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها، فزوجه إياها، وأصدقها أربعمئة درهم.

وبعد إسلام «الحارث بن أبي ضرار» أعلمه النبي ﷺ أن الله افترض على أغنياء المسلمين زكاة ينبغي لكل من وجبت عليه إخراجها في كل عام. وقد ذكر العلامة الألوسي في تفسيره الفخيم (روح المعاني) حديث «الحارث» فقال<sup>(١)</sup>: [أخرج أحمد، وابن أبي الدنيا، والطبراني، وابن منده، وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي، قال: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه، وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة، فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله! أرجع إلى قومي، فأدعهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، وترسل إليّ يا رسول الله رسولا لإبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة.

فلما جمع «الحارث» الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس الرسول، فلم يأت، فظن «الحارث» أن قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، فدعا سرّوات قومه فقال لهم: رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان وقت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندنا من الزكاة، وليس من رسول الله عليه الصلاة والسلام الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وبعث رسول الله ﷺ «الوليد بن عقبة بن أبي معيط» وهو أخو «عثمان» رضي الله تعالى عنه لأمه.

(١) روح المعاني: (ج ٢٦/ص ١٤٤).

إلى «الحارث» ليقبض ما كان عنده، مما جمع من الزكاة، فلما أن سار «الوليد» إلى أن بلغ بعض الطريق فَرَقَ - خاف - فرجع، فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: إن «الحارث» منعني الزكاة، وأراد قتلي، فضرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البعث إلى «الحارث» فأقبل «الحارث» بأصحابه، حتى إذا استقبله «الحارث» وقد فصل عن المدينة، قالوا: هذا «الحارث»، فلما غشيهم، قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعت الزكاة، وأردت قتله، قال: لا، والذي بعث «محمدًا» بالحق! ما رأيته بَتَّةً، ولا أتاني، فلما دخل «الحارث» على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: (منعت الزكاة، وأردت قتل رسولي؟) قال: لا، والذي بعثك بالحق! ما رأيته ولا رأيته، ولا أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، خشية أن يكون سخطة من الله تعالى، ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، فنزل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي فَتَيِّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا يَجْهَلُونَ فَاصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وكانت المرأة المطهرة «عائشة» رضي الله عنها قد خرج سهمها حين أقرع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين نسائه قبل أن ينطلق إلى بني المصطلق غازياً، ولما قفلوا راجعين أضلَّت رضي الله عنها عقداً لها، فلما ذهبت تلتسمه، اختلق المنافقون قصة الإفك العظيم، والافتراء الأثيم، ولكن الله تعالى الذي يدافع عن المؤمنين، برأها من إفكهم، وظهرها من افتراءهم، ونصرها، وانتصر لها، وكيف لا؟ وهو القائل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، والقائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، وهاهي ذي أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق تروي لنا ما حدث لها في ذلك اليوم العَصِيب!

وقد أخرج البخاري في صحيحه <sup>(١)</sup> حديث أم المؤمنين في تفسير سورة

(١) صحيح البخاري رقم (٤٤٧٣).

النور، قال: [حدثنا يحيى بن بُكَيْر، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا، وكلُّ حدثني طائفةً من الحديث، وبعض حديثهم يصدّق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، الذي حدثني عروة، عن عائشة رضي الله عنها: أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأَيُّهُنَّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب، فأنا أُحْمَلُ في هودجي، وأنزلُ فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمْتُ حين آذنوا بالرحيل، فمسيْتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيت شأني أقبلتُ إلى رحلي، فإذا عقد لي من جَزَعِ ظَفَارٍ قد انقطع، فالتممتُ عقدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يَرَحَلُونَ لي، فاحتملوا هودجي، فَرَحَلُوهُ على بعيري الذي كنتُ ركبْتُ وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يُثَقِّلَهُنَّ اللَّحْمُ، إنما تأكل العُلُقَةَ من الطعام، فلم يستكر القومُ حِقَّةَ الهودج حين رَفَعُوهُ، وكنتُ جاريةً حديثة السنِّ، فبعثوا الجمَلَ وساروا، فوجدتُ عقدي بعدما استمر الجيشُ، فجنْتُ منازلهم وليس بها داع ولا مجيبٌ، فأقمْتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فَبَيَّنَّا أنا جالسةً في منزلي غَلَبَتْنِي عيني فممتُ، وكان صفوانُ بن المُعَطَّلِ السُّلَمِيِّ ثم الذكوانيُّ من وراء الجيش، فأدلج، فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، والله! ما كلمني كلمةً، ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعه، حتى أناخ راحلته فَوَطِئَ على يديها فركبُتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيشَ بعدما نزلوا مُوغرين في نحر الظهرية، فَهَلَكَ مَنْ

هَلَكَ . وكان الذي تولَّى الإفك «عبد الله بن أبي ابن سلول»، فقدمنا المدينة، فاشتكيْتُ حين قدمتُ شهرًا، والناسُ يُفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيءٍ من ذلك، وهو يُرييني في وجعي أنني لا أعرفُ من رسول الله ﷺ اللُّطف الذي أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيُسَلِّمُ ثم يقول: (كيف تيكُم؟) ثم ينصرف. فذاك الذي يرييني ولا أشعر، حتى خرجتُ بعدما نَقَهْتُ، فخرجتُ معي «أم مُنْطَح» قبل المناصع، وهو مُتَبَرِّزُنَا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نَتَّخِذَ الكُفْتِ قريباً من بيوتنا، فانطلقتُ أنا و«أم مُنْطَح»، وهي ابنة أبي رُهْم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة «أبي بكر الصديق»، وابنها «مُنْطَح بن أثاثة»، فأقبلتُ أنا و«أم مُنْطَح» قبل بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرت «أم مُنْطَح» في مِرْطِهَا، فقالت: تَعَسَ «مُنْطَح» فقلت لها: بنس ما قلتُ، أَتَسِيَّينَ رجلاً شهد بدرًا؟ قالت: أي هَتَاهُ، أو لَمْ تسمعي ما قال؟ قالت: قلتُ، وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ يعني سلّم ثم قال: (كيف تيكُم؟) فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريدُ أن استيقن الخبرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فجنْتُ أبوي فقلت لأمي: يا أمّاهُ! ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية! هَوْنِي عليك، فوالله! لَقَلَّمَا كانتِ امرأةٌ قَطُّ وضيئةً، عند رجل يحبها، ولها ضرائرٌ إلا كَثُرْنَ عليها، قالت: فقلت: سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيْتُ تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنوم حتى أصبحت أبكي، فدعا رسولُ الله ﷺ «عليَّ بن أبي طالب» و«أسامة بن زيد» حين استلبت الوحي، يستامرهما في فراق أهله، قالت: فأما «أسامة بن زيد» فأشار علي رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله! أهلك، وما نعلم إلا خيراً، وأمّا «عليُّ بن أبي طالب» فقال: يا رسول الله! لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثيرٌ، وإن تسأل الجارية تصدِّقك .

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: (أي بريرة! هل رأيت من شيء يرببك؟) قالت: لا والذي بعثك بالحق! إن رأيتُ عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من «عبد الله بن أبي ابن سلول» فقالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: (يا معشر المسلمين! من يعذرنني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله! ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي). فقام «سعد بن معاذ الأنصاري» فقال: يا رسول الله! أنا أعذرک منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرک، قالت: فقام «سعد بن عباد» وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمركم الله! لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام «أسيد بن حضير» وهو ابن عم «سعد»، فقال لسعد بن عباد: كذبت لعمركم الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يحفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع، يظنان أن البكاء فالق كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي.

قالت: فبينما نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم، ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: (أما بعد، يا عائشة! فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستنصري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه).

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعي، حتى ما أُحِسُّ منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبني رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت، وأنا جاريةٌ حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله! لقد علمتُ: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلتُ لكم: إني بريئة، والله يعلم أنني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفتُ لكم بأمرٍ، والله يعلم أنني بريئة لَتُصَدِّقُنِي، والله! ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا نَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قالت: ثم تحولت فاضطجعتُ على فراشي، قالت: وأنا حينئذٍ أعلم أنني بريئة، وأنَّ الله مبرئني ببراءتي، ولكن، والله! ما كنت أظن أن الله مُنَزَّلٌ في شأني وحيأ يُتلى، ولشأني في نفسي كان أَحَقَرَ من أن يتكلم الله فيَّ بأمرٍ يُتلى، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قالت: فوالله! ما رام رسول الله ﷺ، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزلَ عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدَّر منه مثلُ الجمانِ من العرقِ، وهو في يومٍ شاتٍ، من ثقل القول الذي يُنزلُ عليه.

قالت: فلما سُرِّي عن رسول الله ﷺ سُرِّي عنه وهو يضحك، فكانت أولُ كلمةٍ تكلمتُ بها: (يا عائشة! أمَّا الله ﷻ فقد برأكِ)، فقالت أُمِّي: قومي إليه، قالت: فقلت: والله! لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُ إلا الله ﷻ، وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكَ لَا تَحْسَبُوهُ﴾ العشر الآيات كُلِّهَا، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال «أبو بكر الصديق» ﷺ وكان يُنْفِقُ على «مسطح بن أثاثة» لقرابته منه وفقره: والله! لا أنْفِقُ على «مسطح» شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِّنْكَ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْقَرَبِينَ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، قال أبو بكر: بلى، والله! إني أحب أن

يغفر الله لي، فرجع إلى «مِطْحِ» النفقة التي كان يتفق عليه، وقال: والله! لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل «زينب ابنة جحش» عن أمري، فقال: (يا زينب! ماذا علمت، أو رأيت؟) فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً.

قالت: وهي التي كانت تُساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها «حَمْنَةُ» تُحاربُ لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك].

وأخرج البخاري أيضاً عن مسروق، عن أم رومان أم عائشة أنها قالت: (لما رُميت عائشة خَرَّتْ مَغْشِيًّا عليها). رقم (٤٤٧٤).

وروى محمد بن إسحاق، عن أبيه، عن بعض رجال بني النجار، (أنَّ «أبا أيوب خالد بن زيد» قالت له امرأته «أم أيوب»: يا أبا أيوب! أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى؛ وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب! فاعلة ذلك؟ قالت: لا، والله! ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله! خير منك).

وقد أمر رسول الله ﷺ بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش - وكانوا ممن خاضوا في حديث الإفك - فَصُرُّوا حدهم.

وجاء في قصيدة مطولة تحدثت فيها عن مناقب أم المؤمنين هذه الأبيات<sup>(١)</sup>:

يا أُمَّتَا أنتِ النِّقَاءُ بعينه	ونقاء ذيلك ليس فيه مِرَاءُ
ومَنْ ابتَغَيْنِ من الطَّهارة صَفْوَهَا	فبغير نبعك لا يُرام صفاءُ
لا تحبِّي الإفك الذي جاءوا به	شراً، وفي كل الشرور بلاءُ
للمؤمنين، وغمَّة لو أنهم	صبروا لزال عنهم الغمَّاءُ

(١) الأبيات من قصيدة للشاعر «محمد راجي حسن كناس» مهداة لأم المؤمنين.

من فضل ربك آية غراء  
 أن ابنة الصديق منه برأء  
 وعلى الحصانة أشهد الأمان  
 وانتابهم مما جنوه شقاء  
 فله عذاب ليس منه وقاء  
 من إفكهم وانجابت البرحاء  
 بعظيم منه تكشف الأسواء  
 نفياً لما قد أرجف السفهاء  
 ما أنجبت نداء لها حواء  
 يا أمته إذا انتفى الشهداء  
 لا خير فيمن ليس فيه وفاء  
 فليشأو مثلك ما ارتقى الشعراء  
 لأبرأ أم والحقوق مضاء  
 وفي سيرة ابن هشام<sup>(١)</sup> أن حسان بن ثابت قال يعتذر عما ذكر به

بل كان خيراً وفق ما نزلت به  
 رسخت بأسماع الزمان ووكدت  
 معصومة ليست تزن بريبة  
 وأصاب كيد المرجفين نحورهم  
 أما الذي منهم تولى كبره  
 وعن المبرأة انجلي ما ساءها  
 فالحمد ثم الحمد لله الذي  
 ما أنزل الرحمن من عليائه  
 إلا لأنك للحرائر أسوة  
 وكفى بربك شاهداً ومبرئاً  
 ومن الوفاء بيان فضلك أمانة  
 ما قلت ذلك راغباً في مذحة  
 لكنه حق أردت قضاءه

«عائشة» رضي الله عنها:

وتصبح غرثي من لحوم الغوافل  
 نبي الهدى والمكرمات الفواضل  
 كرام المساعي مجدها غير زائل  
 وطهرها من كل سوء وباطل  
 فلا رفعت سوطي إلي أناملي  
 بها الدهر بل قول امرئ بي ما حل  
 لآل نبي الله زين المحافل  
 تقاصر عنه سورة المتطاول  
 من المحصنات غير ذات عوائل

حصان رزان ما تزن بريبة  
 حليلة خير الناس ديناً ومنصباً  
 عقيلة حي من لؤي بن غالب  
 مهذبة قد طيب الله خيمها  
 فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم  
 وإن الذي قد قيل ليس بلائط  
 فكيف وودي ما حييت ونصرتي  
 له رتب عال على الناس كلهم  
 رأيتك وليغفر لك الله حرة

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٣٤)، والبيتان الثاني والأخير من الديوان ولم يذكرهما ابن هشام في سيرته.

وحين سمعتُ قوله:

حَصَانُ رِزَانٌ مَا تُرَنُّ بِرَيْبَةٍ وَتَصْبِحُ غَرثِي مِنْ لِحُومِ الْغَوَافِلِ  
قالت عائشة: لكنك يا حسان! ما تصبح غرثان من لحومهن.

وقال ابن هشام<sup>(١)</sup>: وحدثني أبو عبيدة: أن امرأة مدحت بنت  
«حسان بن ثابت» عند عائشة، فقالت:

حَصَانُ رِزَانٌ مَا تُرَنُّ بِرَيْبَةٍ وَتَصْبِحُ غَرثِي مِنْ لِحُومِ الْغَوَافِلِ  
فقالت عائشة: لكن أبوها.

قال أبو ذر: يروى: أبوها وأباها، فمن قال: (أبوها) فمعناه: لكن  
أبوها لم يكن كذلك، ومن قال: (أباها) فإنه يعني: أن حسان أبي هذه  
الفضيلة.

وبعد أن ضُربَ المفترون على أم المؤمنين - عائشة - ﷺ حدهم،  
قال قائل من المسلمين في ذلك<sup>(٢)</sup>:

لقد ذاق حسانُ الذي كان أهله  
تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم  
وآذوا رسول الله منها فجللوا  
وضبت عليهم مخصدات<sup>(٥)</sup> كأنها  
وحمنة إذ قالوا هجيراً<sup>(٣)</sup> ومسطح  
وسخطة ذي العرش الكريم فأترحوا<sup>(٤)</sup>  
مخازي تبقى عمموها وفضحوا  
شأبيب قطرٍ من ذرى المزن<sup>(٦)</sup> تنفح<sup>(٧)</sup>

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٣٥).

(٢) الأبيات في سيرة ابن هشام (٣/٣٣٦).

(٣) الهجير: قول الفاحش القبيح.

(٤) أترحوا: أحزنوا، من الترح.

(٥) مخصدات: سياط محكمة القتل شديداً.

(٦) المزن: السحاب.

(٧) تنفح: تيسل.

## أمر الحديبية وبيعة الرضوان

وأقام رسول الله ﷺ في المدينة شهري رمضان وشوالاً، ثم خرج في ذي القعدة سنة ست، يريد العمرة، ولا يريد القتال، وخَلَفَ على المدينة «نُمَيْلَةَ بن عبد الله الليثي».

وكان ﷺ قد استنفر العرب، ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، مخافة أن تعرض له قريش بحرب، أو تمنعه زيارة البيت، لكن الأعراب أصمُّوا آذانهم عن استنفره، إلا قليلاً منهم، فخرج بهم ومعه المهاجرون والأنصار، وساق الهذلي، وأحرم بالعمرة، ليشعر الناس بالأمن من حربه، ويعلموا أنه ليس في نيته القتال، وأن غايته زيارة البيت وتعظيمه.

وأخرج ابن جرير الطبري<sup>(١)</sup> حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن مسلم الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه، قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية، يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه سبعين بدنة، وكان الناس سبعمئة رجل، كانت كل بدنة عن عشرة نفر.

وكان «جابر بن عبد الله» فيما بلغني، يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة.

وجاء في حديث الزهري: فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بعُفَّان، لقيه «بِشْرُ بن سفيان الكعبي» فقال له: يا رسول الله! هذه قريش قد

(١) تاريخ الطبري (٢/٦٢٠).

سمعوا بسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل<sup>(١)</sup> قد لبسوا جلود النمرور، وقد نزلوا بذي طوى، يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا «خالد بن الوليد» في خيلهم، قد قدّموها إلى (كُرَاعِ الْعَمِيمِ).

قال ابن إسحاق: فقال رسول الله ﷺ: (يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خَلُّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله! لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة)<sup>(٢)</sup>.

ثم قال: (من رجلٌ يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم التي هم بها؟). قال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، أن رجلاً من أسلم قال: أنا، يا رسول الله! قال: فسلك بهم على طريق وعير حزن بين شعاب، فلما أن خرجوا منه - وقد شقَّ ذلك على المسلمين، وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي - قال رسول الله ﷺ للناس: (قولوا: نستغفر الله، ونتوب إليه) ففعلوا، فقال رسول الله ﷺ: (والله! إنها لَلْحِطَّةُ التي عرضت على بني إسرائيل، فلم يقولوها).

قال ابن شهاب: ثم أمر رسول الله ﷺ الناس فقال: (اسلكوا ذات اليمين، بين ظَهْرِي الحَمْضِ في طريق تخرجه على ثنية المُرَارِ على مهبط الحديبية من أسفل مكة، قال: فسلك الجيشُ ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترتة الجيش، وأنَّ رسول الله ﷺ قد خالفهم عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك في ثنية المُرَارِ، بَرَكْتَ ناقته، فقال الناس: خَلَّاتُ<sup>(٣)</sup>! فقال: (مَا خَلَّاتُ، وما هو لها

(١) العوذ المطافيل: الإبل حديثة النتاج، مفردتها عائذ، والمطافيل التي معها أولادها، يقصد أنهم خرجوا ومعهم النساء والولدان.

(٢) السالفة: صفحة العنق، وهما اثنتان، وكنتى بانفرادها عن الموت.

(٣) خلَّات: بركت وحرَّنت.

بخلُق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى حُطَّة، يسألوني صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها). ثم قال للناس: انزلوا، ف قيل: يا رسول الله! ما بالوادي ماء ننزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قلب من تلك القلوب فغرز في جوفه، فجاش<sup>(١)</sup> الماء بالري، حتى ضرب الناس عليه بعطن<sup>(٢)</sup>.

واختلف في الذي نزل في القلب بسهم رسول الله ﷺ، فعند ابن إسحاق: «ناجية بن جندب بن عمير» سائق بُذَن رسول الله ﷺ.

وفي رواية ثانية عنه قال: وقد زعم لي بعض أهل العلم: أن «البراء بن عازب» كان يقول: أنا الذي نزلت بسهم رسول الله ﷺ، فإله أعلم أي ذلك كان. قال: وأنشدت أسلم أبياتاً من شعر قالها «ناجية»، قد ظننا أنه هو الذي نزل بسهم رسول الله ﷺ، فزعمت أسلم أن جارية من الأنصار أقبلت بدلها، و«ناجية» في القلب يميح على الناس، فقالت:

يا أيها المائح دلوي دُونكا      إني رأيت الناسَ يحمدونكا  
يُثنون خيراً ويُمجِّدونكا

قال ابن هشام: ويروى: إني رأيت الناس يمدحونكا

قال ابن إسحاق: فقال «ناجية» وهو في القلب يميح على الناس:

قد علمت جارية يَمَانِيَةَ      أني أنا المائح<sup>(٣)</sup> واسمي ناجية  
وظغنة ذاتِ رشاش واهية      طعنتها تحت<sup>(٤)</sup> صدور العادية  
فلما اطمأن رسول الله ﷺ أنه «بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءِ الْخُزَاعِي» في نفر من قومه، وكانت خُزَاعَةُ موضع نصح رسول الله ﷺ، مسلمها ومشركها،

(١) جاش: ارتفع.

(٢) ضربت الإبل بعطن: إذا رويت ثم بركت حول الماء أو الحياض لتعود للشرب مرة أخرى. ثم استعير لانتعاش الناس.

(٣) يميح: يملأ الدلاء ليسقي الناس.

(٤) تحت: في الطبري، عند: في سيرة ابن هشام.

وكلموه وسألوه عما جاء به، فأخبرهم أنه لم يأت لحرب، ولكن جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمة، فلما أبلغوا قريشاً بذلك، سمعوا منهم ما يكرهون، ثم قالوا: وإن كان لا يريد القتال، فلا يدخلها علينا عتوة، ولا تتحدث عنا العرب بذلك.

ثم جاءه «مِكرز بن حفص» فأخبره رسول الله ﷺ بنحو ما قاله لبديل وأصحابه، فعاد إليهم بما سمع من رسول الله ﷺ، فقام «عروة بن مسعود الثقفي»، فقال: أي قوم! ألسنتم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: ألسنتم بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تهمونني؟ قالوا: لا، قال: إن هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آتة، فقالوا: آتته، فأتاه.

وجعل «عروة» يكلم النبي ﷺ، فكلما كلمه أخذ بلحيته، و«المغيرة بن شعبة» قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى «عروة» بيده إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخز يدك عن لحيته، فرفع «عروة» رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: «المغيرة بن شعبة» قال: أي غدر! ألسنتم أسعى في غدرتكم؟ وكان المغيرة بن شعبة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: (أما الإسلام فقد قبلنا، وأما المال فإنه مال غدر، لا حاجة لنا فيه). وجعل «عروة» يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، قال: فوالله! إن يتنخّم النبي ﷺ - إن: بمعنى: ما - نُخامةً إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعاً كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم، وما يُجدون النظر إليه تعظيماً له.

فرجع «عروة» أصحابه، فقال: أي قوم! والله! لقد وفدت على الملوك ووفدت على «كسرى» و«قيصر» و«النجاشي»، والله! إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب «محمد» محمداً. والله! إن يتنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعاً كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم، وما يُجدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة

رَشِدٍ فاقبلوها . فقال رجل من كنانة: دعوني آتة، فقالوا: آتته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال النبي ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظّمون البُذَن، فابعثوها له، فَبِعِثْتُ له، واستقبله قوم يُلبُّون، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت.

قال الزهري: ثم بعثوا إليه «الحُلَيْسَ بن عَلْقَمَةَ» - أو ابنَ زَبَّان - وكان يومئذ سيد الأحابيش - وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة - فلما رآه النبي ﷺ قال: (إِنَّ هذا من قوم يتألّهون<sup>(١)</sup>)، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عُرض<sup>(٢)</sup> الوادي في قلائده، قد أكل أوباره من طول الحبس، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش! إني قد رأيتُ ما لا يُحِلُّ صَدَّ الهدى في قلائده، قد أكل أوباره من طول الحبس عن صَحْلِهِ، قالوا له: اجلس، فإنما أنت رجل أعرابي لا علم لك.

وذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر: أن «الحُلَيْسَ» غضب عند ذلك، وقال: يا معشر قريش! والله! ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أَيُصَدُّ عن بيت الله مَنْ جاء معظماً له؟ والذي نفس «الحُلَيْسِ» بيده! لَتُخَلَّنَ بين «محمد» وبين ما جاء له، أو لَأَنْفِرَنَّ بالأحابيش نفرة رَجُلٍ واحدٍ، فقالوا له: مَهْ! كُفَّ عَنَّا يا حُلَيْسُ حتى نأخذ لأنفسنا ما نَرْضَى به.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم: أن رسول الله ﷺ دعا «جِرَاشَ بن أُمِيَةَ الخزاعي» فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له يقال له (الثعلب)، ليبلِّغ أشرافهم عنه ما جاء له، ففعلوا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمَنَعته الأحابيش، فخلَّوا سبيله، حتى أتى رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: (وقد حدثني بعض من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس: أن قريشاً كانوا بَعَثُوا أربعين رجلاً أو خمسين

(١) يَتَأَلَّهُون: يتعبدون ويعظّمون الإله.

(٢) عُرض الوادي: جانبه.

رجلاً، وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً، فأتيت بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلقى سيلهم، وقد كانوا زَمَوْا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل).

ودعا رسول الله ﷺ «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، ليكون سفيره إلى قريش بمكة، فيبلغ أشرافها ما جاء له، فقال «عمر»: يا رسول الله! إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكنني أدلك على رجلٍ أعزَّ بها مني، «عثمان بن عفان»، فدعا رسول الله ﷺ «عثمان بن عفان» فبعثه إلى «أبي سفيان» وأشرف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت، ومُعظماً لحرمة، وانطلق «عثمان» إلى مكة، فلقه «أبان بن سعيد بن العاص» فحملة بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فأتى «عثمان» أبا سفيان وهو في نفر من زعماء قريش، فبلغهم ما جاء من أجله، فلما علموا برسالة النبي ﷺ إليهم، قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف، فَرَدَّ بقوله: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. فاحتبته قريش لديها وأشاعت أنه قد قُتل.

فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ قال: (لا نبرح حتى نناجز القوم) ثم دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، تحت شجرة سَمُرَة، فبايعه الناس، ونزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. ولهذا سميت البيعة تلك (بيعة الرضوان)، وذكر العلامة الآلوسي في تفسيره (روح المعاني)<sup>(١)</sup> عند تفسير الآية الآنفه، [أن منادي رسول الله ﷺ نادى: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأمره بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوه، فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبايعوه، قال جابر كما في صحيح مسلم وغيره: بايعناه ﷺ على الأَنْفَرِّ، ولم نبايعه على الموت،

(١) روح المعاني (ص ١٠٦ / ج ٢٦).

وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تحت الشجرة، قيل: على أي شيء تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت. وأخرج مسلم عن معقل بن يسار أنه كان أخذاً بأغصان الشجرة عن وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو يبايع الناس، وكان أول من بايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يومئذ أبا سنان وهو «وَهَبُ بْنُ مِخْصَنٍ» أخو «عُكَّاشَةَ بْنِ مِخْصَنٍ»، وقيل: «سنان بن أبي سنان» وروى الأول البيهقي في «الدلائل» عن الشعبي، وأنه قال للنبي عليه الصلاة والسلام: ابسط يدك أبايعك، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (علام تبايعني؟) قال: على ما في نفسك. وفي حديث جابر الذي أخرجه مسلم أنه قال: بايعناه عليه الصلاة والسلام، و«عمر» رضي الله تعالى عنه أخذ بيده، ولعل ذلك ليس في مبدأ البيعة، وإلا ففي صحيح البخاري، عن نافع أن «عمر» رضي الله تعالى عنه، يوم الحديبية أرسل ابنه «عبد الله» إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يبايع عند الشجرة، و«عمر» لا يدري بذلك، فبايعه «عبد الله» ثم ذهب إلى الفرس، فجاء به إلى «عمر» و«عمر» رضي الله تعالى عنه يستلم<sup>(١)</sup> للقتال، فأخبره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يبايع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وصرح أنه ﷺ ضَرَبَ بيده اليمنى على يده الأخرى وقال: (هذه بيعة عثمان)، ولما سمع المشركون بالبيعة خافوا وبعثوا «عثمان» رضي الله تعالى عنه، وجماعة من المسلمين، وكانت عدة المؤمنين ألفاً وأربعمائة على الأصح عند أكثر المحققين]. انتهى.

وقد بايع رسول الله ﷺ الناس من حضروا جميعاً ما عدا (الجد بن قيس) أخو بني سلمة، فقد اختبأ تحت بطن بعيره، يستتر من الناس، لنفاقه. ثم أرسلت قريش «سهيل بن عمرو» في نفر إلى رسول الله ﷺ

(١) يستلم: يلبس لأتمته، والأتمة: السلاح.

ليصالحوه، فلما رآهم رسول الله ﷺ مقبلين وفيهم «سهيل بن عمرو» قال لأصحابه: (سَهِّلْ اللهُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ، الْقَوْمَ مَا تُؤْنِ إِيكُمْ بِأَرْحَامِكُمْ، وَسَائِلُوكُمُ الصَّلْحَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ، وَأَظْهَرُوا التَّلْيِيَةَ، لَعَلَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قُلُوبَهُمْ). فلبَّؤا من نواحي العسكر، حتى ارتجَّتْ أصواتهم بالتلوية، فجاءوا، فسألوه الصلح. وقالت قريش لسهيل: ائت «محمدًا» فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله! لا تَحَدَّثُ الْعَرَبُ عَنَا أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنَوَةً أَبَدًا. وأطال «سهيل» الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح. فلما ألتالم الأمر، ولم يبق إلا الكتاب، وثب «عمر بن الخطاب» فأتى «أبا بكر» فقال: يا أبا بكر! أليس برسول الله؟ قال: بلى! قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى! قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر! الزم غَرْزَهُ<sup>(١)</sup>، فإني أشهد أنه رسول الله، قال «عمر»: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! أأنت برسول الله؟ قال: بلى! قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى! قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يُضَيِّعَنِي. فكان «عمر» يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.

وأمر رسول الله ﷺ «علي بن أبي طالب» بكتابة الصلح، فقال: (اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم)، فقال «سهيل»: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم! فقال رسول الله ﷺ: (اكتب باسمك اللهم!) فكتبها، ثم قال: (اكتب هذا ما صالح عليه «محمد» رسول الله «سهيل بن عمرو») فقال «سهيل»: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ: (اكتب هذا ما صالح عليه «محمد بن عبد الله» سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر

(١) الزم غَرْزَهُ: الزم أمره، والغرز للرجل كالركاب للسرّج.

سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى «محمداً» من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع «محمد» لم يردّوه عليه، وأن بيننا عَيَّبَةٌ مكفوفة<sup>(١)</sup>، وأنه لا إسلال<sup>(٢)</sup>، ولا إغلال<sup>(٣)</sup>، وأنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم، دخل فيه، فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدها، وأنتك ترجع عنّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، وأن معك سلاح الراكب، السيوف في القُرب، لا تدخلها بغير هذا.

وبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو و«سهيل بن عمرو» جاء ابن سهيل بن عمرو ويدعى «أبا جندل» إلى رسول الله ﷺ مسلماً، وكان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما أخذه رسول الله ﷺ على نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون، فلما رأى «سهيل» ابنه «أبا جندل» قام إليه، وضرب وجهه، وأخذ بتلييه، ثم قال: يا «محمد» قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: (صدقت)، فجعله يشده ليرده إلى قريش، وكان (أبو جندل) يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أَرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني! فزاد الناس ذلك شراً إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا جندل! اُخْتَسِبْ، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عقداً وصلحاً، وأعطيناهم على ذلك عهداً، وأعطونا عهداً وإنا لا نغدير بهم).

فوئب «عمر بن الخطاب» مع (أبي جندل) يمشي معه، ويقول: اصبر

(١) عيبة مكفوفة: أي لا تكون بيننا عداوة.

(٢) لا إسلال: لا سرقة خفية.

(٣) لا إغلال: لا خيانة.

يا «أبا جندل!»، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب. وراح «عمر» يذني قائم سيفه من «أبي جندل». يقول «عمر»: رجوتُ أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضنَّ الرجل بأبيه.

وشهد على كتاب الصلح رجال من المسلمين والمشركين، منهم «أبو بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» و«عبد الرحمن بن عوف» و«سعد بن أبي وقاص» و«محمود بن مسلمة»، و«علي بن أبي طالب» وهو كاتب الصحيفة، و«عبد الله بن سهيل بن عمرو» و«مكرز بن حفص بن الأخيف» وكان مشركاً آنثذ.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من قضيته، قال لأصحابه: (قوموا فانحروا، ثم احلقوا)، قال: فوالله! ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على «أم سلمة» رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت له: «أم سلمة» يا نبي الله! أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام، فخرج، فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى فعل ذلك، نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك، قاموا فانحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا.

وكان الذي حلق رسول الله ﷺ يومئذ «خِرَاشُ بن أمية بن الفضل الخزاعي». وفي حديث مجاهد، عن ابن عياش، قال: حلق رجالٌ يوم الحديبية، وقصّر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: (يرحم الله المحلقين)، قالوا: والمقصرين، يا رسول الله! قال: (يرحم الله المحلقين)، قالوا: والمقصرين يا رسول الله! قال: (يرحم الله المحلقين)، قالوا: يا رسول الله والمقصرين! قال: (والمقصرين). قالوا: يا رسول الله! فلم ظهرت<sup>(١)</sup> الترحم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: (لأنهم لم يشكوا).

(١) ظهرت الترحم: أي: قوية بتكريرك إياه.

وفي حديث لمجاهد عن ابن عباس، قال: أهدى رسول الله ﷺ عام الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل، في رأسه بُرَّةٌ<sup>(١)</sup> من فضة، ليغيظ المشركين بذلك. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، جاءه «أبو بصير، عتبة بن أسيد بن جارية»، وهو من قريش، مسلماً، فكتب فيه «أزهر بن عبد عوف» و«الأخضر بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي» إلى رسول الله ﷺ، وحمل رجل من بني عامر بن لؤي مولى لهما كتابهما إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا بصير! إنا من أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً).

فخرج «أبو بصير» مع طالبيته، حتى إذا كانوا بذي الحليفة، جلسوا إلى جدار فقال «أبو بصير»: أصارم سيفك هذا؟ يا أخا بني عامر! قال: نعم، قال: أنظر إليه؟ قال: إن شئت! فاستله «أبو بصير»، ثم علاه به حتى قتله، وانطلق المولى يعدو حتى أتى رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد، فلما رآه رسول الله ﷺ طالعاً، قال: (إن هذا رجل قد رأى فرجاً) فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ: (ويلك! ما لك؟) قال: قتل صاحبكم صاحبي، فما برح أن طلع «أبو بصير» متوشحاً بالسيف، حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! وفّت ذمّتك، وأدّى عنك. أسلمتني ورددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: (ويل أمه مسعّر حرب! لو كان معه رجال!) فلما سمع بذلك عرف أنه سيرده إليهم.

فخرج «أبو بصير» حتى نزل بالعيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق قريش، الذي كانوا يأخذون إلى الشام، ولمّا بلغ قول رسول الله ﷺ لأبي بصير: (ويل أمه مسعّر حرب! لو كان معه رجال!) من احتبس بمكة من المسلمين، خرجوا إلى «أبي بصير» بالعيص، وانفقت «أبو

(١) البرّة: حلقة تجعل في أنف البعير ليدل ويرتاض، فإن كانت من خشب فهي خشاس، وإن كانت من شعر فهي خزامة.

جندل بن سهيل بن عمرو» ولحق بأبي بصير، حتى اجتمع إليه ما يقرب من سبعين رجلاً، فكانوا يعترضون غير قريش حتى ضيقوا عليها، ولما ثقل عليها ما خسرته من القتلى والأموال، أرسلت قريش إلى النبي ﷺ ينشدونه بالله والرحم لَمَا أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فأواهم رسول الله ﷺ، فقدموا عليه المدينة.

ولما بلغ «سهيل بن عمرو» قتل «أبي بصير» صاحبهم العامريّ أسند ظهره إلى الكعبة، وقال: لا أؤخر ظهري عن الكعبة حتى يُودُوا هذا الرجل، فقال «أبو سفيان بن حرب»: والله! إن هذا لهو السَّفَه! والله! لا يُودي، ثلاثاً.

وكان رسول الله ﷺ أحرص الناس على الوفاء بالعهد، وأبعدهم عن نقضه، والغدر به، لذلك ردّ على قريش من جاءه منها مسلماً بعد إبرامه ميثاق الحديبية، من الرجال حتى فَرَّجَ اللهُ عنهم وجعل لهم مخرجاً، ولكن أي موقف اتخذهُ رسول الله ﷺ مع النساء اللواتي هاجرن إليه مسلماتٍ؟

كانت «أم كلثوم بن عقبة بن أبي معيط» أول المؤمنات المهاجرات إلى رسول الله ﷺ، فقد أسلمت سرّاً، وكتمت إسلامها عن أهلها، وبعد أن استقر رسول الله ﷺ في المدينة، أزمعت الهجرة إليه، لتعبد الله في أمان، ولَمَّا علم بذلك أخوها «عُمارة» و«الوليد» ابنا عقبة، خرجا في إثرها، حتى قدما على رسول الله ﷺ يسألانه ردها بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية، الذي يقضي بردّ من أتاه مسلماً بغير إذن وليه، فلما سمعت «أم كلثوم» بمقدم أخويها فزعت إلى رسول الله ﷺ وقالت له: يا رسول الله! إنما أنا امرأة، وحال النساء إلى الضعف، فأخشى أن يفتنوني في ديني، ولا صبر لي، وقال أخوها: يا محمد! لا بد من الوفاء بما عاهدتنا عليه، فرد عليهما النبي ﷺ: أن الشرط كان في الرجال لا في النساء، وسُرَّت «أم كلثوم» بقول رسول الله ﷺ أَيْمًا سروراً! وغمرتها فرحة عارمة، ونزل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجَّرَاتٍ فَاتَّخِذُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنَّ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ

وَأَتَوْهُم مَّا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكُرُوهُنَّ إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أُجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَسَأَلْتُمَا مَّا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمَا مَّا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حِكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ [المتحنة: ١٠].

وقد أخرج الترمذي في تفسير سورة المتحنة، [عن الأغر بن الصَّبَّاح، عن خليفة بن حصين، عن أبي نصر، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ قال: كانت المرأة إذا جاءت النبي ﷺ لتسلم حلفها بالله: «ما خرجت من بغض زوجي، ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله» [رقم (٣٢٣٠)]، فدعا رسول الله ﷺ «أم كلثوم بنت عقبة» إلى الامتحان، وكان «عمر بن الخطاب» ﷺ، هو الذي يمتحن النساء، فحلفها بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله ﷺ. -

فلما حلفت على ذلك، قال رسول الله ﷺ لأخويها «الوليد» و«عمارة»: (قد نقض الله العهد في النساء بما علمتماه، فانصرفا).

فخرج الرجال من عند رسول الله ﷺ مخذولين مقبوحين، وما كان الله ليضيع من آمن به، وصدق رسوله ﷺ ولا يسلمه، ولا يخذله، وهو ولي المؤمنين.

وكان ابن أبي هنيذة<sup>(١)</sup>، صاحب «الوليد بن عبد الملك» قد كتب إلى «عروة بن الزبير» يسأله عن قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فكتب إليه «عروة بن الزبير» يقول: [إن رسول الله ﷺ كان صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاء بغير إذن وليه، فلما هاجر النساء إلى رسول الله ﷺ وإلى الإسلام، أبى الله أن يُرَدَّنَّ إلى المشركين إذا هن افْتَحْنَ بمحنة الإسلام، فعرفوا أنهن إنما

(١) سيرة ابن هشام: (٣/٣٥٥).

جئن رغبة في الإسلام، وأمر برد صدقاتهنَّ إليهم إن احتسن عنهم، إن هم ردُّوا على المسلمين صداق من حُيسوا عنهم من نسايتهم، ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم، فأمسك رسول الله ﷺ النساء وردَّ الرجال، وسأل الذي أمره الله به أن يسأل من صدقات نساء من حُيسوا منهن، وأن يردُّوا عليهم مثل الذي يردُّون عليهم، إن هم فعلوا، ولولا الذي حكم الله به من هذا الحكم، لردَّ رسول الله ﷺ النساء كما ردَّ الرجال، ولولا الهدنة والعهد الذي كان بينه وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء، ولم يردُّ لهن صداقاً، وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد.

وسأل ابن إسحاق<sup>(١)</sup> الزهري عن آية المهاجرات وقول الله ﷻ فيها: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَتاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المتحنة: ١١]، فقال: يقول: إن فات أحداً منكم أهله إلى الكفار، ولم تأتكم امرأة تأخذون بها مثل الذي يأخذون منكم، فعروضوهم من فيء إن أصبتموه، فلما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ إلى قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ [المتحنة: ١٠]، كان ممن طلق «عمر بن الخطاب» طلق امرأته «قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة» فتزوجها بعده «معاوية بن أبي سفيان» وهما على شركهما بمكة، و«أم كلثوم بنت عمرو»<sup>(٢)</sup> بن جُزول الخزاعية، أم عبيد الله بن عمر، فتزوجها «أبو جهم بن حذافة بن غانم» رجل من قومها، وهما على شركهما بمكة.

وذكر ابن هشام: حدثنا أبو عبيدة: أن بعض من كان مع رسول الله ﷺ قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يا رسول الله! إنك تدخل مكة أمناً؟ قال: (بلى، أفقلت لكم: من عامي هذا؟) قالوا: لا، قال: (فهو كما قال لي جبريل ﷺ).

(١) ابن هشام (٣/٣٥٦).

(٢) عند ابن هشام: أم كلثوم بنت جُزول، وما أثبتته من الطبري (٢/٦٤٠).